مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

٣ ـ حديث عيسى بن هشام

للدكتور زكي مبـــارك

الأسلوب — الفكاهات — الرحلة الثانية — الرحلة الفكرية — أسلوب وأسلوب — كلمة ختامية

الأسلوب

أشرنا من قبل إلى أن أسلوب المويلحي يغلب عليه السجع فلنقرر أنه لا يعنى نفسه من أثقال هذه الحلية إلا حين يخوض فى أحاديث يُطلب فيها الإقناع لا الإمتاع . ومعنى هذا أن مقامات الكلام ترجع فى جملتها إلى مقامين : مقام تخاطَب فيه العقول ، ومقام تناجَى فيه القلوب . فالترسُّل الحرّ هو أسلوب الإقناع ، والنثر الفنى هو أسلوب الإمتاع ، وبين هذين المقامين صلات دقيقة يعرفها جهابذة القلم البليغ

فهل التزمَ المويلحى هذه الخطة فى جميع الأحوال ؟

الظاهر أنه لم يراعها كل المراعاة ، فقد سجع فى مواطن لا يجوز فيها السجع ، وحار قلمه بين موجبات العقل ، وموحيات الذوق ، فلم يسلم فى بعض الظروف من الإسفاف

نصّ شوقى على سجع المويلحى حين رثاه فقال :

رُبَّ سجعٍ كرقص الروض لمّا يختلف لحنُهُ ولا إيقاعُهْ
أو كسجع الحمام لو فصلتْهُ وتأنتْ به ودقّ اختراعُهْ
هو فيه بديع كل زمانٍ ما بديعُ الزمان ما أسجاعه ؟

ومن الواضح أن شوقى يرثي ، والرثاء يبيح التهويل ، ولهذا جاز أن يكون سجع المويلحي أبرع من سجع بديع الزمان ، مع أن الفرق بين فن المويلحى وفن البديع ، كالفرق بين « عيسى بن هشام » الجديد ، و « عيسى بن هشام » القديم ؛ وسيظل بديع الزمان هو البديع ، لأنه المبتكر الأول لهذا الفن الجميل ، الفن الذى ينقد المجتمع عن طريق الأسمار والأحاديث ، باللمحة البارعة والأسلوب الرشيق[1]

المويلحى يتعثر فى الأسجاع ، ولكنه قد يبلغ الغاية فى بعض الفقرات ، كأن يقول على لسان المحامى وهو يخاطب موكلاً رجاه أن يرجئ الأجر إلى آخر الشهر :

« أتظن أن هـذه الوعود ، تقوم لدينا مقام النقود ، فى بلد كثُر فيه الإنفاق وزادت الضرورات ، وقلّ فيه الربح كما قلّت المروءات ، وصار الدرهم أعزّ عند الأب من بنيه ، وعند الإبن من أبيه ! وقد تعبتُ فى القضية تعبَيْن : باللسان وبالجنان ، ولا أستريح منهما إلا بنقد الأصفر الرنّان . فلا تجعل الخلاص من قضية بقضية ، والفكاك من بلية ببلية ، فذلك ما لا يأتيه العقلاء ، ولا يرتضيه الأمراء »[2]

وكأن يقول : إنه رأى فى ساحة المحكمة : « وجوهاً مكفهرّة ، وألواناً مصفرّة ، وأنفاساً مقطوعة ، وأكفّاً مرفوعة ، وباطلاً يُذكر ، وحقّاً يُنكر ، وشاكياً يتوعد ، وجانياً يتودد ، وشاهداً يتردد ، وجندياً يتهدد ، وحاجباً يستبد ، ومحامياً يستمد ، وأمّاً تنوح ، وطفلاً يصيح ، وفتاة تتلهف ، وشيخاً يتأفف »[3]

وجملة القول أن الأسجاع الجيدة عند المويلحي كثيرة ، أليس هو الذى يسجع فيقول فى التبرم بالناس :

« إن سالمتَهم حاربوك ، وإن وادعتَهم ناصَبُوك ، وإن صادقتَهم خانوك ، وإن واثقتَهم كادوك ، وإذا خالطتَهم لا تأمن الاعتداء ، وإذا مازجتَهم لا تعدَم الافتراء ، وإن طالبتَهم بحق ، فإنك لا تسمع الصُّمّ الدعاء »[4]

الفكاهات

المويلحي كثير التندر والدعابة ، وهو ألطف ما يكون حين يسوق الفكاهة بطريق النقد الملفوف . . . أراد أن يعيب عدم استقرار محكمة الاستئناف فى مكان فقال وهو ذاهب إليها مع الباشا : « ولعلنا نجدها بإذن الله فى مكانها ، فقد تعودت التنقل من مكان إلى مكان ، ثم اقتربنا فوجدناها »[4]

والكلمة الأخيرة من دقيق التنكيت ... وقد عاش المويلحى إلى أن رأى محكمة الاستئناف قد استقرت فى مكان !

وأراد أن يفصح عن جرأة « المحامى الشرعى » فى ذلك الزمان فأدار الحديث على مثل هذه الصورة :

— علمنا أنك رجلٌ عدلٌ عفٌّ ، فجئناك لقضية فى وقف

(١) « عيسى بن هشام » : شخصية اخترعها الهمذانى ونقلها عنه المويلحى ، وهى شخصية خفيفة الروح هنا وهناك

(١) ص ٦٨ (٢) ص ٣٧
(٣) ص ١٦٩ (٤) ص ٦٥

— أتطلبون ريعه ؟ أم تريدون بيعه ؟

— سبحان الله ! وهل تباع الأوقاف ؟

— نعم ، ويباع جبل قاف !

ثم يصير السجع نفسه فكاهة فى هـذا الموضع « تنحنح الشيخ وسَعَل ، وبَصَقَ وتَفَل ، وتسَعَّط ، ثم تخَطَّط ، واقترب منا ودنا ، ثم قال لنا »(١)

وأراد أن يصور بلاء الناس بطول الإجراءات فى المحاكم فقال :

« نسأل الله أن ينقذنا مما أصابنا من حكم الدهر ، وأن يعجل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر »(٢)

وهذه فكاهة مرة المذاق ، فلعل إجراءات المحاكم المصرية أصبحت أقصر مما كانت فى ذلك الزمان

الرحلة الثانية

وعد المويلحى فى نهاية الرحلة الأولى بأنه سيقوم برحلة ثانية ليصور المجتمع فى الأقطار الغربية ، وقد انتظر القراء هذه الرحلة عشرين سنة ، انتظروها من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩٢٧

فمتى قام المويلحى بالرحلة الثانية ؟

حدثنى الأديب إبراهيم المويلحي تليفونيًا أن هذه الرحلة كانت سنة ١٨٨٩ ، فعارضته فى التاريخ ، لأن معرض باريس لسنة ١٨٨٩ هو المعرض الذى أقيم فيه بُرج إيفل أول مرة ، وفى الرحلة الثانيـة فقرات صريحة فى أن المعرض الذى زاره المويلحى لم يكن ذلك المعرض ، لأنه يتحدث عن « إيراد البرج فى المعرض السابق » ولأنه يتحدث عما انتهى إليه أمر « المسيو إيفل » وقد اتهم بالسرقة والاختلاس وسجن فى قضية « بناما » ولا يمكن أن يقع ذلك فى سنة ١٨٨٩

وبعد يومين تفضل الأديب إبراهيم المويلحي فأخبرنى أنه راجع ماعنده من دقائق فعرف أن الرحلة الثانية كانت فى صيف سنة ١٩٠٠ وأن أصولها أرسلت من باريس ونشرت فى « مصباح الشرق » على فترات

وإذن يكون المويلحى قبر الرحلة الثانية سبعاً وعشرين سنة ، فما سبب ذلك ؟

لعل السبب يرجع إلى أن المويلحى كان يستصغر محصول الرحلة الثانية ، ولعله كان يرجو أن تتاح فرصة يزور فيها أوربا زيارة الباحث المدقق ، ليؤلف كتاباً فى قوة كتابه الأول ، ثم صنع الدهر ما صنع فصرفه عما يريد ، ولم يبق إلا أن يقنع بالمحصول السابق من الرحلة الثانية ، فطبعها قبل أن يموت بثلاث سنين

رحلة أمين فكرى

والمؤكد عندى أن رحلة أمين باشا فكرى كانت السبب فى تردد المويلحى ، فقد كان يحبُّ أن يصل إلى دقائق تفوق ما احتوت عليه « الرحلة الفكرية » فما تلك الرحلة ؟

الجمهور يجهل أن القاهرة شهدت فى سنة ١٨٩٢ ظهور كتاب لم تعرف مثله اللغة العربية ، وهو كتاب « السفر إلى المؤتمر » فى صفحات بلغت ٨٢٣ بالقطع الكبير . وفيه وصفٌ للحيوية الصناعية فى البلاد الأوربية ، وصفٌ لم يكتب مثله كاتب فى الشرق الحديث . وقد كنت شرعت فى كتابة بحث أصور به قيمة هذا الكتاب النفيس ثم انصرفت عنه لبعض الشؤون ، ولعلى أرجع إليه بعد حين

نحن فى صحبة كاتبين وصف أولهما معرض باريس سنة ١٨٨٩ ثم وصفه الثانى فى سنة ١٩٠٠ ، فما الفروق بين هذين الكاتبين ؟

لا جدال فى أن أسلوب المويلحى أروع وأرشق ، ولا جدال فى أن المويلحى مفطور على الحاسة الفنية ؛ ولكن عند الباحث أمين فكرى نزعة علمية قليلة الأمثال ، فقد وصف المعرض وصفاً هو الغاية فى تعقب الأصول والفروع من حيوات العلوم والفنون

قضى الباحث أمين فكرى تسعة أيام فى زيارة المعرض ، وهو فى صحبة أبيه عبد الله باشا فكرى ، أحد أئمة الأدب فى الجيل الماضى ، ورئيس الوفد المصرى إلى مؤتمر المستشرقين الذى عُقد فى بلاد السويد والنرويج سنة ١٨٨٩

كان أمين فكرى يسجل مشاهداته فى كل يوم ، وأى مشاهدات ؟ كان يتعقب ما ترى عيناه بالبحث والفحص والتشريح ثم يسجل ما يراه بعبارات فصيحة بليغة أغناها الوضوح والتحديد عن التزويق والتنميق

إذا قال محمد المويلحى إن برج إيفل هو إرَم ذات العماد ، أخذ أمين فكرى فى سرد تاريخ البرج وتصميماته الهندسية ، وانطلق فتحدث عن طبيعة الأرض القريبة من نهر السين ، وطاف بشؤون علمية لا تخطر للمويلحى فى بال

والحق أن أمين باشا فكرى آية من آيات النبوغ المصرى ، وما كان بينه وبين أبيه يشابه ما كان بين المويلحى وأبيه ، فشهرة

(١) ص ١٠٤ (٢) ص ١٠٩

عبد الله فكرى طفت على منزلة أمين فكرى ، كما أن شهرة ابراهيم المويلحى طغت على منزلة محمد المويلحى

وأمين فكرى نفسه يحدثنا فى المقدمة أن أباه عبد الله باشا فكرى كان ينوى كتابة هذه الرحلة ، وأنه ألمع إلى ذلك فى خطاب أرسله من لوسرن إلى الوزير على باشا مبارك ، ثم دهمه المرض والموت ، فكان مصير الكتاب إلى ابنه أمين .

أسلوب وأسلوب

فى « السفر إلى المؤتمر » عجائب من إنشاء عبد الله فكرى ، وهى تشهد شهادة قاطعة بأن أسلوب الأب وأسلوب الإبن يختلفان بعض الاختلاف

فمتى نصل إلى مثل هذا اليقين فى التمييز بين أسلوب محمد المويلحى وأسلوب أبيه إبراهيم ؟

محمد المويلحى ترك « حديث عيسى بن هشام » وابراهيم المويلحى ترك « حديث موسى بن عصام » وهو منشور بجريدة « مصباح الشرق » ، فإن سمح الوقت يوماً بالموازنة بين الحديثين فسنعرف مَدَى الفرق بين الأسلوب .

إحدى الطرائف

من طريف ما لاحظتُ أن أسلوب عبد الله فكرى تغلب عليه النزعة الأدبية ، على حين تغلب النزعة العلمية على أسلوب ابنه أمين

ولا كذلك الحال بين المويلحى وأبيه ، فالإبنُ تغلب على أسلوبه النزعة الأدبية ، أما الأب فتغلب على أسلوبه النزعة العلمية

والظاهر أن الجيل الماضى فى مصر يحتاج إلى دراسات ، فهو الذى وضع الأساس لبناء الجيل الجديد ، وكان فيما أرى على جانب من العافية ، تصوّره النكتة الآتية :

كان الوزير على باشا مبارك رجلاً من أهل الجد الرزين ، ومع هذا استطاع عبد الله باشا فكرى أن يضف له ملاعب أوربا فى خطاب يقول فيه :

« وكم رأينا فى تلك البطاح ، من رِصاح رِلاح ، كل خَوْد رَدَاح ، شاكية السلاح ، من ألحاظ كالصفاح ، مراض صحاح ، وقدود كالرماح ، دامية الجراح ، فاتكة فى الأرواح ، وليس عليها لدى القانون فيما جَرحتْ جُناح ، وكل ما اجترحتْ مباح ، وهن منتشرات فى تلك الجهات كعقد خانه السمط فانتثرت دُرَرُه ، وروضٍ أَلحتْ عليه الريح فتبدّد زهَرُه ، فهن ظباء فى هذه المراتع روائع ، وأقمار من هذه المطالع طوالع ، وأنوار فى تلك المواضع سواطع ، قد رُبين فى مهاد الدلال رواضع ، وغذّتهن بلبان الجمال لا الجمال المراضع ، فبرزن كالحور ، فى غلائل نُور ، أو ورد جور ، فى زجاج بلور ، تراهن بين الأشجار ، فتراهن بعض الأزهار »[1]

أيُكتَب هذا الكلام إلى وزير اسمُهُ على مُبارك لا زكى مبارك ؟

كان أسلافنا فى عافية ، وكانوا يرون التشبيب فنًّا من البيان ، ولم يكن من العيب أن يوضع مثل هذا الخطاب فى وثائق مجلس الوزراء . فعلى رجال الجيل الماضى ألف تحية وألف سلام !

كلمة ختامية

بهذا المقال الثالث نختم القول فى توجيه الطلاب إلى فهم سريرة عيسى بن هشام ، فقد أفصحنا عن أهم الدقائق من تلك السريرة ، ورفعنا عن المؤلف بعض الآصار التى أثقله بها معاصروه وأزحنا الستار عن حقائق كانت مجهولة عند الكثير من أبناء هذا الجيل

وأنا أرجو من ينظر فى كتاب « حديث عيسى بن هشام » أن يتذكر أنه كتب فى عصر كانت لأبنائه عقيدة أدبية ، فما كانوا يخطّون حرفاً إلا بميزان ، ولا كان الفتى منهم يتطاول إلى تسطير مقال إلا بعد أن يستوعب ما يصل إليه من آثار القدماء ، ولا كان يتسامى إلى الأدب إلا من زُوِّد بمواهب تضمن له الخلود

وما ظنُّكم بجيل كان من أبنائه محمد عبده وسعد زغلول وتوفيق البكرى وأحمد تيمور وإبراهيم المويلحى ومحمود البارودى وعبد الله فكرى وعلى يوسف وعبد العزيز جاويش ؟

لا تنسوا أن الجيل الماضى كانت له عقيدة أدبية وعقيدة قومية . لا تنسوا أنه ترك آثاراً تستحق الدرس والاقتداء . لا تنسوا أنه لا يليق أن نكون أقل منهم حرصاً على التحليق ، ونحن نملك من الوسائل ما لم يكونوا يملكون

إن « حديث عيسى بن هشام » صورة من صور القلق الاجتماعى ، وهو يشهد أن مؤلفه كان يتجه إلى خلق جيل جديد يَسلم من أوضار الجيل العتيق

(١) السفر إلى المؤتمر ص ١٠٠